

قصص من سيرة شهداء المقاومة الإسلاميّة

قصة الشهيد المجاهد أحمد فارس

بقلم: زينب رضى شاتيلا

باسم رب الشهداء

كتاباتٌ بلا عنوان

قفزَ بقامته الطّويلة فوق راجمة خيبر، رفعَ كتفيهِ العريضتين وفتحَ ذراعيه للهواء، ثمَّ وضع يدهُ اليُمنى على صدره وصدحَ بصوته الجهوريُّ قائلًا: «جنوبيُّ الهوى قلبي وما أحلاهُ أن يغدو هوا قلبي جنوبيّا!».

كما وقفَ الشّاعر عمر الفرّا وراء منبر المسرح في دمشق خلال حرب تموز عام 2006، وقفَ «محمد رضا» على العربة المُتحركة التي تحمل قواعد إطلاق الصواريخ في جنوب لبنان، تلك الشاحنة التي تحمل فوق ظهرها صندوقًا يشبه القفص المفتوح، يتخلَّله صفائح حديديّة مثقوبة من الداخل بدوائر متوازية، يمر عبر سِكَكها صواريخ خيبر. كان قد أخرجها ورفيقَيْه في المجموعة من المرآب المُخَصَّصِ لها لتتموضعَ في مربضها بعدما جاءتهم الأوامر من غرفة العمليات بإطلاق صلية من صواريخ خيبر نحو الكيان المُحتل.

تمدَّدت شفتا محمد رضا الغليظتان ترسُمان ابتسامةً بيضاء ناصعة لم يتخلَّ عنها ابن التاسعة والعشرين ربيعًا حتى في ذروة حالات الحرب الصعبة. ثمَّ نزل عن الراجمة وأكمل إلقاءهُ بنفس أداء الشاعر عمرا الفرا: «هنا حطَّت رحائلُنا تعال اخلع! وقد أرجوك أن تركع!»، ركعَ ليثبِّت أرجل الشاحنة في قلب الأرض بعدما وجَّه رفيقاه مِنصَّة الإطلاق بشكلٍ عامودي وعدَّلوا الإحداثيات، كان الهدف إطلاق صِلية من صواريخ خيبر من موقعهم في دير الزهراني شمال نهر الليطاني نحو منطقة العفولة الواقعة ما بعد حيفا في العمق الفلسطيني المُحتلّ.

أنهى محمد رضا غرزَ الأرجل في الأرض ثم مشى بين طرفَي الشاحنة وهو ينظرُ إلى السماء المشتركة بين لبنان وفلسطين وعيناه شبه مغمضتين بفعلِ أشعة الشمس الحارقة يوم الأحد من شهر آب، الثالث عشر منه عام 2006. سالت قطرات العرق من جبينه الأسمر العريض لتمرَّ قربَ عينيه الخضراوين اللتين كان يتباهى بهما أمام أصدقائه بعدما كانوا يمازحونه ببعضِ الألقاب

الخاصة بينهم. مشى وهو يضربُ قدميه بالأرضِ، ينظرُ إلى التراب تارة، وإلى وجه رفيقَيه المُنهمِكين بالعمل طورًا، ثمَّ حرَّك يديه كمايسترو فرقةٍ موسيقية وهو يواصلُ إنشاد القصيدة قائلًا: «إنَّنا...» ثمَّ أطرقَ قليلًا كما يطرقُ الفرا ثم أكمل: «نمشي... على أرضٍ... مُقدّسةٍ... فلو أسْطيع أعبرها على رمشي...».

لم يتمالك رفيقا الحربِ نفسَيهما وراحا يضحكان لما يقوم بهِ من أداءٍ مسرحي، «مجنون هيدا!»، قال أحدهما وهو يميل برأسِه مُستغربًا برودة أعصابه ومرَحه في لحظات الحرب المُشتعلة، لحظاتِ الخوف بعدَ أيامٍ كثيرة من الجوع والعطش وفُقدان المأوى وافتراشِ الأتربة والصُّخور. لمَ لا وهما لا يعرفان «أحمد فارس» وطبعَه المرح وحِسّه الفكاهيّ ومزاحَه المتواصل الذي لا حدود له؟ هما لا يعرفان خيزرانة المكتب التي يستقبل بها زواره بترحاب يليقُ بمقامهم. هما لم يختبرا ذكاء هذا الرجل وإبداعه وذهنهُ الوقّاد في ميدان عمله الأصلي في صفوف المقاومة. هما لم يطَّلِعا على ذاكرة الرجُلِ التي تحوي أرشيفَ عمليات المقاومة التي قامت بها قبل التحرير، مع أسماءِ العملاء والأسرى والتواريخ... حتما سيستغربُ هذان الرّفيقان الفكاهة في سلوك محمد رضا في ذلك اليوم المُدّوي حيث تواصل فيه القصف الصهيوني دون توقُّف كما قابلهُ ردُّ المقاومة الكثيف. كانت سماء البلدين يومها تُمطران قصفًا صاروخيًّا لم يهدأ.

أنهى الثلاثة تجهيز الراجمة وحان وقت إطلاق صلية صواريخ خيبر، والّتي كانت الصّلية الأخيرة، في تلك الحرب. الصِّلية ذات المدى الذي فاجأ العدو حيثُ ظنَّ أنه قضى على الترسانة الصاروخية لحزب الله خلال الثلاثة والثلاثين يومًا المُنصرمة. فما كان من محمد رضا ورفيقيه إلّا أن أرسلا تلك الصلية كتوقيع نهائيّ. وقف حينها محمد رضا يكمل القصيدة قائلًا: «هنا وقفوا!...» ثم أعادها مرةً أخرى وهم يطلقون بنداء يا حسين! ثمَّ ردَّدَ قائلًا: «هنا قَصَفوا...» فانطلقت صلية من ثلاثة صواريخ رسمت خطوطًا من نار اخترقت حدود الجنوب لتضرب هدفها في العفّولة التي تبعد أكثر من 50 كلم عن الحدود بين البلدين.

رصدَت حينها طائرة الإستطلاعِ مكان الإطلاق. توجَّهت نحو مربض الراجمة، وصورت استعراضَ مُقاتلٍ وراء راجمة. لم تتمكن جراءَ طنينها المُزعج من سماعِ صوته وهو يقول: «لهم في الموت فلسفةٌ، فلا يخشونه أبدًا». لكنها استمرَّت في التقاطِ صوره وهو يركعُ ليزيلَ أرجل الشاحنة من قلب الأرض، لا يأبه لطيرانها فوقه ولا لصوتها ولا لتصويرها. صوَّبت نحوه نيرانها، أطلقت عليه قبل أن يُنهي القصيدة قائلًا: «هنا ركبوا براق الله، وانسكبوا بشلّالٍ من الشُّهداء...». ”



